الحجاج: المفهوم والأسلوب

حمر العين زهور
جامعة ابن خلدون، الجزائر
hameurlainezhor@yahoo.fr

تاريخ النشر Publication date	تاريخ القبول Acceptance date	تاريخ التلقي Submission date
2020-12-27	2020-04-28	2020-03-10

الملخص:

أن تحاجج، يعني أن تعمل على إثبات موقفك وأطروحتك واتجاه ومنه تقنع المتلقي إلى إتباعك فيما تذهب إليه؛ على أن تأخذ في الحسبان أنّ ذات المتلقي ذات مفكرة فليس من اليسير تحقيق النتيجة المرجُوة؛ وعليه يجب أن تستخدم آليات منطقية وشبه منطقية في العملية الحجاجية، مما يخلق التباس بين الحجاج البرهان؛ ما جعل البعض خاصة المناطقة يردّون الآلية الحجاجية إلى آلية برهانية مركزين على إمكانية تجاوز الفارق الأساس - إلى جانب فوارق أخرى لم يهتموا لها على أهميتها – وهو اعتماد الحجاج اللفظ والأساليب البلاغية. مما دعانا إلى النظر في الحجاج كبلاغة في مفهومها القديم (الريطوريقا)، بما شملته هذه الأخيرة من أبعاد ثلاثة: الصورية، الجدلية والخطابية. فكان أن أردنا ان استخدمنا المنهج التحليلي المقارن للمعالجة الإشكالية التالية:

1. ما الحجاج؟
2. كيف آل الحجاج إلى البلاغة منذ 1958؟
3. ما الفرق بين الحجاج والبرهان؟

الكلمات المفتاحية: البلاغة، الخطاب، البرهان، الآلية الحجاجية.

Abstract:

To argue, means to work to prove your position, your thesis, and the direction from which you persuade the recipient to follow you as you go; to take into account that the same receiver has a thinker subject , it is not easy to achieve the desired result; Therefore, mechanisms logical and almost logical must be used in argumentation process, which creates confusion among the argumentation, the proof, which made some people, especially the logicians, return the mechanism argumentation to a mechanism demonstration focusing on the possibility of overcoming the fundamental difference - along with other differences they did not care about its importance - which is the dependence of argumentation term and rhetorical technique. Which led us to consider the argumentation as rhetoric in its ancient concept (riturika), including the latter included three dimensions: formality, dialectic and rhetoric. So we wanted to use the comparative analytical approach to the following problematic treatment:

- What's argumentation?
- How did the argumentation become a rhetoric since 1958?
- What is the difference between argumentations and proof?

Key words: rhetoric, discourse, proof, argumentation mechanism.

مقدمة

عرفت الدراسات الحجاجية تطوراً لم يعرف له سابقه منذ السفسطائية إلى ماقبل ظهور البلاغة الجديدة. " وترجع الأهمية التي تحضي بها اليوم، في جانب كبير منها، إلى النّضج الكبير الذي عرفته مجموعة من المجالات المعرفية المحايثة، كالمنطق واللّسانيات وعلم الاجتماع وعلم النفس... فأصبحنا أمام معرفة متشعبة تغطي مجالات النشاط الإنساني كلها" (حافظ اسماعيل، 2010: 10)

يشير الحديث عن الحجاج كمفهوم ومجال وتقنية ونظرية وآلية للاقناع، عادة إلى الحديث عن المغالطات السفسطائية مروراً بالبلاغة الكلاسيكية إلى البلاغة الجديدة سواءاً تعلق ذلك بالبلاغة العربية أو الغربية. لكنّنا نعتقد أنّ إدراك هذا المفهوم إنما نتلمسه أساسا في كل مجالات حياتنا المعاشة. إننا لا نكاد نتأمل خطاب أيّما كان مجال هذا الخطاب إلاّ وكان الحجاج حاضراً. وفي كل حراك سياسي واجتماعي وفني وأدبي سواءاً تعلق الأمر بترجمة السلوك. أو بالخطاب كخطاب بما يحمله اللّفظ من معنى وجدنا حجاجاً. ومن هنا نلتقي في ذلك بمجموعة مفاهيم نحاول تحليلها من خلال من خلال طرح التّساؤل التالي:

ماهو الحجاج؟ وهل يمكن اعتبار الجدل من مترادفاته؟ وما هي العلاقة بين الحجاج والبرهان والاستدلال ؟ وإذا كانت الدّراسات القديمة والمعاصرة تربط بالبلاغة فما المقصود بها ؟

مفهوم الحجاج:

الحجاج (l'argumentation) ومصدرة الكلمة argument والتي تعني الحجة المأخوذة " من الفعل اللاتيني arguere، وتعني جعل الشيء واضحاً ولامعاً وظاهراً، وهي بدورها من الجذر الاغريقي (argues) ويعني أبيض ولامع ". نفهم من هذا أن جعل الشيء واضح ولامع لما هو غير واضح، للمبهم بما يحتاج تفسيراً مقنعاً. مما يجعل الحجاج يكسب معناه المتداول في الثقافات العربية والغربية بوجود محاولة إقناع طرف لآخر، مما يوحي بوجود نزاع تتأتى معالجته بإثبات الحجة اللازمة.

في تحديده لمفهوم الحجاج يذكر محمد طروس في كتابه " النظرية الحجاجية " أنّ هناك " نظريتان تتقابلان وتتوازيان في تعاملهما مع المفهوم " (محمد طروس، 2005: 8) فالنظرة الأولى تعني بالحجاج كأسلوب تنتظم فيه الحجج وتتآلف للدّفاع عن موقف ما أو دحض آخر كما يرد ذلك في موسوعة لالاند " هو سلسلة من الحجج تتجه جميعاً نحو نفس النتيجة " و " هو الكيفية التي تقدم بها)الحجج وتنتظم " lalande andré:2010, 78,79.

وهو في هذا يبين أن الحجة استدلال على اعتبار أن الحجج مقدمات يقدمها المحاجج لتبيان صحة النتيجة المراد إثباتها وعلى هذا الأساس فالحجة هي دليل؛ " والدليل: إنه عملية توجيه التفكير العقلي بصورة يقينية ومقنعة، وبذلك يتخذ الدليل صورة استدلال تصير فيه النتائج منسجمة مع المقدمات التي انطلقت منها (حافظ اسماعيل، 2010: 03)ويشير لالاند إلى اعتبار الدليل حجة ولا يرتكز القول هنا على الحجة العقلية بل توجيه العقل أما الدليل فنتلمسه من الواقع، لأن الملموس والواقع إنما يقود إلى الحقيقة بما أنه حقيقي بظهوره للعيان. وبما أنه حقيقي فمن شأنه حمل الحقيقة لما يكون دليلاً له. وعلى هذا النحو يكون لا فرق بين الحجاج والاستدلال والبرهان؛ إذ منها جميعاً تنتظم الحجج بحيث تستنبط منها نتيجة تتوافق وتنسجم معها.

أمّا النظرة الثانية فهي ترتبط بمعنى الشك والمبهم والمحتمل واللايقين، وهذا بخلاف العقلانية الديكارتية الكلاسكية التي تغفل هذا الجانب من المعارف. إذ ليس من المعقول أن تكون كل معارفنا واضحة ويقينية وإن

اختلف اثنان فواحد منهما على الحث مما يقصي مفهوم الشك ف " الشك لأنّه يفترض أن مجال الاتفاق حول موقف معين، ليس واضحا بما فيه الكفاية، أو لا يفرض بالقوة الكافية؛ مما يجعل مجال الحجاج؛ مجالاً لشبيه والمعقول والمحتمل الذي ينفلت من كل الضرورات الحسابية " (محمد طروس، 2005: 08) . إذن لا جدال ولا حجاج مما هو واضح يقيني وبديهي مما يجعلنا الآن ننظر إلى الحجاج بغير نظرتنا للبرهان والاستدلال إلى اعتبار أن النسق بين المقدمات والنتائج إنما يخضع لضرورة عقلية وليس اعتباطية مما يؤدي إلى اعتبار صدق النتيجة بحيث لا يمكن ردّها، أما بالنسبة للحجاج فعلى خلاف ذلك أن النتائج ذاتها مدار شك مما يجعلها ممكنة الرّد عليها من طرف الحضور وبما لا ينسجم معها.

أمّا عن التجذير اللغوي لمفهوم الحجاج عند العرب فقد جاء في لسان العرب لابن منظور " حاججه حجاجاً ومحاجة حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أديتُ بها (...) وحاجة محاجة وحجاجاً، نازعته الحجة (...) والحجة الدليل والبرهان " (ابن منظور ، 2010: 227). وجاء أيضاً في هذا الكتاب عن الأزهري " الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة. وهو رجل محاجج أي جدّل، والتّحاج؛ التخاصم وفي الحدّيث " فحجّ آدم موسى " أي غلبه بالحجة "(ابن منظور ، 2010: 228). وحاج أو حاجج بفك الإدغام أي خاصم كما في قوله تعالى ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ** ﴾. أي نازعه الحجة، وقوله تعالى ﴿**هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾. ولارتباط الحجاج بالتنازع والخصومات فقد نجده من مترادفاته الجدّل لقوله تعال ﴿**وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ**﴾.

الحجاج والبلاغة:

أصبح العصر اليوم يسمى بعصر الخطاب، فقد كان لكتاب برلمان (1912/1984) وتيتيكا(1899/1987) " مصنف في الحجاج " أو كما سماه فما بعد سنة 1958 ب إضافة عنوان فرعي البلاغة الجديدة. هذا إذ دل على شيء إنما يدل على أن هناك علاقة وطيدة بين البلاغة والحجاج أو الخطابة والحجاج.

ففيما يتمثل الأثر البلاغي في الحجاج أو الأثر الحجاجي في البلاغة مما يجعل أحدهما يرتد إلى الثاني ؟

منذ 1958 أخذ الحجاج يأخذ مسارا دراسيا مختلفا غير ما كان غليه من الركود ، وإنما يعود هذا الركود إلى تفريق جوانب هذا الأخير بين علوم مختلفة فما خص منها الاستدلال واستنباط النتائج من المواضع والمقدمات (les prémisses) أصبح مجاله العلوم الصورية. وما خص الجدل والنقاش والتنازع والترافع خص العلوم السياسية والقانونية ، أما ما خص منها حسن القول وقدرة التّعبير والمجازات اللغوية والمحسنات البديعية فكان من حض الخطابة ؛ و لربما لترجمة كتاب أرسطو "**الريطوريقا**" بالخطابة في الفكر الإسلامي دور لانحصارها في اختيار اللفظ وجمالية الأسلوب. لقد أعاد كتاب برلمان وتيتيكا من جهة وكتاب ستيفن إيدلسون تولمن (1922-2009) دور في لم شمل الريطوريقا ، وخير دليل على ذلك هو تسمية مصنف الحجاج بالبلاغة الجديدة الذي يحيل إلى مد الجسور إلى البلاغة القديمة في كليتها.

إن التواصل في أبسط صوره يحمل حجاجا . ولا حجاج بغير لغة ولا لغة بغير حجاج؛ فلا تواصل لا لغة لا حجاج في انفصال أي منهم عن عناصر هذه المجموعة.

إن تاريخ الحجاج يكشف عن بلاغية نشأته. إذ أنه كان وليد المرافعات والقضايا التي كانت تعقد في اليونان إثر سقوط النظام الأوليغارشي الذي استولى على أملاك الهلينيين. وبعد سقوطهم راح هؤلاء يتقاضون فيما بينهم من أجل استرداد ممتلكاتهم التي أُختُلِف في حدودها. ولأن **الحجج الغير صناعية** بحسب التعبير الأرسطي والذي يقصد

بها الحجج الخارجة عن نطاق الخطيب، أو المُرافِع في القضايا... غير كافية وعلى الخطيب أن يقدّم أمام القاضي خطابه من شأنه أن يرجع الكفة بالاتجاه المطلوب، فيكون الخطاب بذلك مقنعاً. والبلاغة بما تعبر عنه من قدرة على الاقناع فالحجة في مثل هذا المقام تحقق فاعليتها باستخدام اللّغة أكثر من استخدامها وبنائها على قواعد المنطق .

الحجاج بلاغة:

من يمتلك الكلمة امتلك الحجة المُعبرة عنها والقدرة على ترتيبها، وتنوع أساليب تبليغها وفهم مسائلها وكيفية ترتيبها في وسط الحقل البلاغي فقد امتلك أسلوبا حجاجياً. هذا الأخير الذي يتأسس في الحقل البلاغي، ويقتضي أن يقوم على عناصر ثلاث. لا تقوم له قائمة بدونها. باعتباره فعلا تواصليا؛ يربط بين طرفين يسمى الأول المتكلم (المخاطب)، وسمي الثاني (المستمع) (المخاطَبْ)؛ والفعل التواصلي **متمثلا في الفعل الحجاجي فعلا بلاغيا.**

بلاغة الحجاج:

(البلاغة) بما تحمله من أدوات لغوية (كروابط الفصل والوصل، الالتزام، وحروف العلة، واسم الفاعل، واسم المفعول به...) وأدوات منطقية أو شبه منطقية فأداة المنطقية تعني بالأدوات المعبرة عن لزوم المقدمات إلى النتائج مثل: (إذن، ينتج لدينا، ومنه... الوصل ،الفصل ..) أما الشبه منطقية وهي التي يذكرها بيرلمان وتيتيكا باعتبار حضور ها في الحجة ةفي بناء لا لاغتبارات منطقية بل لاعتبارات حجاجية اقناعية فليس الاتيان بالتناقض من أجل كشف صدق واحدة من القضايا وكذب أخرى بل من سبيل متى أثبتنا فساد الاعتقاد السائد في ذهن المتلقي لم يترك له خيارا إلا الاقتناع بما أراد أن يوجهه إليه أو غير ذلك من العلاقات ذات الطبيعة الوظيفية المنطقية لكن لغرض حجاجي كأن نقول: إنه انسان أمين. فقد أودعته نقودي. فإذا ما كان الحجاج مبنيا على هذه الأدوات إلى جانب ما نستعمله من استعارات مجازية، صور بيانية ومحسنات بديعية من أجل التأثير في المستمع فيجعلها يقوم بالفعل أو يتركه كتن **خطاباً بلاغياً محاججاً**

إن كانت الخطابة (البلاغة) كما ذكرنا قد نشأت في المحاكم، فأسهم هذا " في انتاج ثروة لغوية تجلت في سجال الخطابات السياسية "(حافظ اسماعيل، 2010: 19).إلاّ أن الخطابة (البلاغة) ارتأت أن لا تكون مجرد سجال " وجدل أو وسيلة للتأثير فحسب، بل هي ترتفع إلى العلم والفن الحقيقيين كما يقول جورجياس، وتبعاً لذلك فالمعرفة الحقيقية هي تلك الممثلة في الخطابة، إنها عند ترازيماخوس نظرية في الوجود ونظرية في السياسة، وعند أنتيفون طب للنفوس، ووسيلة بها ترتفع الحياة الباطنة ارتفاعاً كبيراً، وعند هيبياس نمو بالروح ولطف فيها وسمو في التفكير العقلي، وهذا يعني أن البلاغة قد ارتفعت عند السوفسطائيين جميعاً إلى مرتبة العلم بمعناه الصحيح "(حافظ اسماعيل، 2010: 10).لكن ما الفرق بين البلاغة القديمة- الحاضرة في الخطاب السفسطائي — والبلاغة الجديدة المعبرة في مصنف الحجاج والتي أحدثت عودة إليها في ثوبها السفسطائي سعيا إلى التأثير في المتلقي وعودة إلى خطابة أرسطو بلم شملها.

احتمالية القضايا الحجاجية:

يذهب محمد العمري إلى تحديد مفهوم البلاغة وهو يقدم في ذلك معنيين لها الأول باعتبارها " الكفاءة التعبيرية، أو حسن الكلام " (محمد العمري، 2010:67). وتعريفها على هذا النحو يفهم منه ما تمتلكه من قوة تأثير فالبلاغة بما هي خطاب فعال قادرة على استمالة المخاطب ومداعبة عواطفهم وبعثه على اتخاذ هذا القرار دون ذلك.

إلى جانب الشق الثاني لهذا المعنى والمتمثل في ما يحدثه حسن الحديث من إعجاب بالقول وبالتالي يترك أثر فعالاً متمثلاً في رغبة متابعة الإصغاء.

أما المعنى الثاني: " هو العلم الذي يصف هذه الكفاءة وهذا الحسن... البلاغة هي علم الخطاب المؤثر القائم على الاحتمال: وأنا أتمسك برقبتي هاتين الكلمتين: الاحتمال والأثر "(محمد العمري ، 2010: 68).

يرتبط الحجاج فيما يرتبط فيه من البلاغة بمعناها الثاني الذي يشير إلى الأثر والاحتمال إذ " قدمت الحجاجية رؤيتها إلى مسألة الغموض في الخطاب بإحالته إلى الفعل كمشكل عملي وليس إلى المنطق كمشكل نظري محصن " (الناص عمارة، 2009 : 96). إن هذا السب وهذا الغموض مما يترك الأثر فالاحتمال لحمل النّفس والمخيلة على محاولة البحث عما هو ملائم الأمر الذي يتدخل فيه الخطيب يحدد هذا الملائم، مادام ليس هناك بداهة وضرورة منطقية في الحجج التي كانت قد أوجدت لها مكانا في ذهن المستمع- إن وجدت – أو يوجد هو مكان لما أراد له الإقناع في ذهن المستمع مادام هذا الأخير يقع ضمن دائرة أحكامٍ مرنة قد تتصاعد ناحية الواحد إذا ما أراد لها الخطيب ذلك بحجج ما وقد تنخفض ناحية الصفر إذا كان الهدف هو حسن القول وحلوله محل الحجاج.

على اعتبار أن هذه القيم المرنة توجد ضمن مجال بي]1-0[بحيث عندما نصدق تماما والصفر عندما تماما تكذب تماما غير أننا جعلنا الواحد والصفر خارجان عن المجال فقيمة الصدق تكون بينه في حالة البداهة والضرورة وهذا مالا يكون في الفعل البلاغي الحجاجي. إذن فالاحتمالية والإمكانية لا تنقص من أهمية الخطاب لأن لولاه لما كان فهو طبيعته وركنه العتيد. " فطبيعة التداولية للحجاج لا تتماشى والبداهة والضرورة. إذ لا تداول مع الضرورة ولا بداهة مع الحجاج "

(Perleman chaim , Tyteca olbrechthe Lucie .2000 : 1, 2)

كما أن هذه الاحتمالية ذاتها هي التي- وإن كانت هي ما يجمع البلاغة القديمة والجديدة- إلاّ أنها ما شكل الفارق، ففي البلاغة الكلاسيكية إنطلاقا من السفسطائية كان الهدف هو توجيه المستمع وإقناعه. أما في البلاغة الجديدة فهي ترتبط بالإرادة الإنسانية فهي تفتح المجال للمستمع بأن يحاجج هو الآخر، وهي بهذا لم تسعى إلى الإقناع فحسب بل شكل الإقتناع نقطة هامة. فالإقتناع كفعل ذاتي صادر من الذات وإلى الذات هو الذي يمهد للإقناع أي هو ما يجب على الخطيب إذ أن حين يفتح هذا الباب للمستمع فإنما يمنحه حرية الاختيار وقبل حرية الاختيار حرية إبداء الرأي والحجاج واكتشاف ضعف وقوة الحجج حيث تتجسد قوة الخطاب الحجاجي. " فلم تكن الفلسفة الأرسطية إلاّ إجابة بلاغية وحجاجية على التعدّ الذي مارسته الفلسفة الأفلاطونية إلاّ محاولة تشبيه الفعل المُؤخر " داخل الحقيقة الفلسفية من خلال الجمع بين أفلاطون وأرسطو- ورد الثاني إلى الأول رداً جميلا " (الناصر عمارة: 98) وهكذا تجعل البلاغة الجديدة الفعل الحجاجي فعلاً منتجا لفعل حجاجي آخره وليس خطاباً اقناعيا فحسب ولهذا كانت حرية المتلقي فارقا آخرا بين البلاغتين.

الحجاج والبرهان:

بالنظر إلى النظرة الأولى إلى الحجاج والتي ترى الحجاج سلسلة من الحجج تؤدي إلى نتيجة يتبادر إلى أذهاننا في الحجاج لا نزيد عن كوننا نقوم باستدلال برهاني، أو العكس أن البرهان ليس إلاّ مجموعة حجج يحاجج بها لبلوغ النتيجة. غير أن الأمر ليس على هذا النحو لما قد نورده قيما هي من اختلافات انطلاقا من المثالين التاليين.

1) أ) علي عمره 9 سنوات

ب) خالد وعلي ولدا في نفس اليوم – مثال (البرهان)

إذن عمر خالد 9 سنوات

2)سينجح علي في المسابقة.

- فقد حصل على نتائج جيدة في امتحانات الفصول.

- لقد أخذ دروسا خاصة في جميع المواد... مثال الحجاج

- وقد تتلمذ على يدي أحسن الأساتذة في الولاية.

أ - الصوريه واللاصورية

-في المثال الأول (البرهان) برغم استعمالنا للغة الطبيعية، إلاّ أنه يمكننا استخدام اللّغة الرمزية ذلك أن ما يحيل إلى النتيجة ليس المعنى الدّاخلي للعبارات وإنما النسق المنطقي الذي يحكمها فعلاقة التعّدي بالمفهوم الرّياضي والتي يمكن التعبير عنها بإعطاء كل حد رمز فيمكن أن نعطي ل (أ) وخالد (ج) فنقول:

أو وفق القياس المنطقي من الشكل barbara على اعتبار أن القضية الشخصية هي كلية موجبة)

كل أ ب	أ=9
كل أ ج	ج= أ
كل ج ب	ج= 9

إن هذه الإمكانية في الترميز للمثال الأول توحي بإقصاء المعنى التي توحي به العبارة وإقصاء المقام المرتبط بها. فالنتيجة لا تخضع إلاّ للقوانين المنطقية التي تتحكم فيها. كما أن البرهان على هذا النحو يجعل لنتيجة تتمتع بخصوبة تتكون هي الأخرى منتجة بحيث يمكن جعلها مقدمة يقينية باعتبارها مُبرهنة في برهان آخر وهكذا يمكن الحصول على متتالية من مبرهانات النسق. الأمر الذي يجعل نتائجها يقينية لا احتمالية، ضف إلى ذلك أن الرّمزية تكسب الصورية مما يجعل القضايا تتمتع بالاستقلالية. في المثال الثاني (الحجاج)، لا تستقيم العملية الحجاجية إلاّ من خلال المعنى الذي تحمله العبارات وما ترتبط به من قصد وتداولية تراعي المقام. مما يجعل العملية الحجاجية تراعي أبعاداً غير تلك التي ترتبط بها العملية البرهانية التي تسعى للتحقيق التوافق بين المقدمات والنتائج. فالنجاح أبعاداً نفسية واجتماعية وثقافية... إلخ ويمكن أن نستكشف أبعادا أخرى كالاقتصادية إذا ما أضفنا كون " المدرسة خاصة "و " ليست حكومية " لما تتمتع به الأولى من قبول في التركيبة الذهنية لأفراد المجتمع. " وهكذا يتعين على الناظر في الحجاج أن يستحضر جانبي المحتوى والصورة باعتبارهما معا ركنين لأي عملية حجاجية، بحيث يتبادلان التأثير ولا يقوم لكل منهما مقام إلا مزدوجا مع الآخر ." (حافظ اسماعيل، 2010: 185).

ولا يهم في العملية الحجاجية مراعاة القواعد المنطقية التي هي جوهر العملية البرهانية. بل وقد يكون الحجاج مُغالط بغية الإقناع.

الوحدة والتعددية الأسلوبية:

إن التداولية المرجوة من العملية الحجاجية من شأنها اختيار وتوزيع الحجج واتخاذ أكثر من سبيل لبلوغ النتيجة نفسها. إذ أن الهدف الأقصى وهو الإقناع يجعل المحاجج ينوع الحجج بحسب المقام وبحسب المخاطبين فينوع الحجج مابين النفسية من أجل تحريك العواطف واستمالتها، ويركز على الوضع الاجتماعي وإمكانية تفسيرها

بربط ذلك التعبير بالقصد المرجو من الحجاج. وكلما تتعدد شرائح المخاطبين وتنوعت مابين (الشاب والكهل والمرأة والرجل، العامل، العاطل عن العمل، الطالب...إلخ) تنوعت هذه الحجج، وقد يتغير حتى ترتيبها من حيث القوة والضعف بحسب هذه الشرائح. ورغم ذلك تبقى النتيجة المبتغاة احتمالية. على خلاف البرهان مع أنه يمكن بلوغ النتيجة باستخدام عدة أساليب برهانية إلا أن الهدف غالبا ما يكون تعليميا ! من أجل ترسيخ النظريات الرياضية والعلمية*، أما النتيجة فتكون محسومة والنتيجة صادقة أو كاذبة بحسب المطلوب من طريق واحد.

الموضوعية البرهانية والذاتية الحجاجية :

إن المحاجج إذا ما كان يصبو البلوغ نتيجة وبحسب المقام الذي قد يمتد إلى إمكانية توقع درجة القبول يلجا المحاجج إلى ما قد نسميه " توظيف الخصم ** " وهو استحضار حجج الخصم من أجل إثبات ضعفها أمام الحجج المؤيدة الأمر الذي قد لا يخلق بديلاً للمخاطب إلاّ قبول ما يسعى إليه المخاطِب. إن إقصاء الذات سواءاً كانت المتابع لعملية البرهنة أو الباني لها في هذه العملية يدّل على استقلالها عن الذات الإنسانية إذ لا تتشابك ولا تتداخل معها بل إنها تسير على نحو قانوني ومنطقي يتوجه إلى جميع العقول على اختلاف معتقداتها الاجتماعية والسياسية والثقافية. بل إنّ إقصاء المتلقي ليس إلا نتيجة الوضوح الذاتي للنتيجة فهي قائمة بذاتها وصادقة بذاتها سواءاً اعترف بها المتلقي وكانت في حدود استعابه وإدراكه أم كان قاصراً على إدراكها. فليس للذات الإنسانية شأن في تحديد قيمتها ما لم تكن الانطلاقة من العملية البرهانية ذاتها ومن سلسل النسق وترابطه بعيدا عن أي تناقض منطقي في الانتقال من المقدمات إلى النتائج.

بالخلاف إقصاء المتلقي في العملية البرهانية. فهو يمثل الركن الأساسي في الحجاج. إذ لا تستقيم العملية الحجاجية بل وتفقد ماهيتها المُؤسسة على البعد الدّلالي والتداولي. بل وكما رأينا في الاختلاف السابق بين البرهان والحجاج من خلال " توظيف الخصم " الذي يوظفه الخطيب بالتسلل إلى مخيلة المخاطَبْ المقصود بالفعل الحجاجي.

إن نشأة الحجاج ضمن الحقل السفسطائي ومروره بالخطابة الأرسطية إلى البلاغة الجديدة فإنما تتأسس على فعل ثلاثي الأبعاد الخطيب والمخاطَبْ و الفعل الخطابي. وهو الفعل الذي يشير إلى عملية التواصل الذي يقتضي وجود طرفي التواصل وبالتالي استحضارهما معا من أجل إحداث توجيه الفعل وبالتالي تحقيق الإقناع. الأمر الذي نتلمسه في المثال الثاني .

القواعد المنطقية والمواضع:

العقل أعدل قيمة بين الناس، ومبدأ الهوية، وعدم التناقض المنطقي لم يختلف حولهما شخصين، والمنطق للفكر كالنحو للغة، وإن كان الفلسفة اليونانية متمثلة في سقراط، أو أفلاطون على لسان سقراط ثم أرسطو تهاجم السفسطائي وتجعلهم خصومها هذا لأنها جعلت الإنسان مقياس الأشياء جميعا مما قد يجعل الناس يختلفون فيما ليس من الإمكان الاختلاف حوله، الأمر الذي أدى بأرسطو إلى النظر في التأسيس لمبادئ المنطق وقواعده فالعقل السليم يُسلم بصدق النتائج المترتبة عن المقدمات الضرورية والكلية. مما يجعلها موضوعية كما رأينا على خلاف ارتباطها بالذات الإنسانية على ما يذهب إليه السفسطائي.

وإذا كان البرهان يعتمد القواعد المنطقية ليتنقل من النتائج إلى المقدمات. فعلى ماذا يقوم الحجاج في عملية لانتقال هذا؟ ما الذي يحدّد المسار؟ إنه الموضع وهو ركن أساسي في الفعل الخطاب فإذا كان الخطابة ركن أساسي في الحجاج ككل بعناصره الثلاث (الخطيب والفعل الخطابي والمخاطب)، أو (المحاجِجْ والفعل الحجاجي والمحاجَجْ) فإن الموضع ركن أساسي في العنصر الثاني، الفعل الحجاجي " المواضع topiques هي مجموعة من

القيم والمعايير والعلاقات المتميزة بطبيعتها الظنية واللايقينية، ولكنّها مع ذلك تتمتع بالشهرة ومقبولية لدى عامة الناس نتيجة توافقها مع الحس القويم المشترك "(حافظ إسماعيل، 2010: 195). إذ أنه يخاطَبْ فيه مجموعة متشابكة من القيم والعلاقات والمعتقدات يتمسك بها أفراد المجتمع كلّما توغلت فيهم أكثر فهي تعمق جذورها وتحفزها عميقا بحيث لا يستطيع حتى المنطق – في كثير من الأحيان – تغييرها، وإذا كانت محاججة الخطيب إنما تقوم على هذه المجموعة من القيم وهي لا تقف ضدها وحسب بل تؤسس للإقناع من خلالها. فهي طريقها إليه، وقد أكد أرسطو على أهمية المواضع في الحجاج في كتابي الطوبيقا والريطوريقا*. فهي مثال الحجاج إنما أوردنا مواضع وإن كان لزوم نتيجة عنها ليس باللزوم المنطقي وهي ذاتها ليست باليقينة إلاّ أنها من مسلّمات الحس المشترك الجمعي.. فإن تقول في الموضع الأول أن هذا الأستاذ كفء فإنما اشتهر نتيجة كفاءته مما يجعل تلامذته ناجحين. وفي الموضع الثاني أنه تابع دروسا خصوصية يعزز القول بالنتيجة أنه سينجح. على ظنية هذه المقدمات إذ قد يعترض معارض، كونه أستاذ كفء ليس بالضرورة أن تكون كل عملياته ناجحة وكون كل من درسّه نجح حتى وإن كان الكل وليس فقط الكثيرين فليس بالضرورة في ما يأتي سيكون ناجحا أيضا- إذ أن لكل حصان كبوة. ومع ذلك فإن المحاجِجْ ومن أجل بلوغ النتيجة يتلمس القوة الإقناعية في هذه المواضع. وفي كثير من الأحيان لاسيما في المحافل الرسمية يؤكد الخطيب على البلاغة في تأكيد على هذه المواضع. فنجد الرجل العامي عندما يقدم نصيحة على أساس تجربته يقول " اسأل مجرب ولا تسأل الطبيب ". أما الطبيب عندما يكون في نفس الموقف يقول " اسأل المجرب ولا تنسى الطبيب ". ومثل هذه الأمثال الشعبية إنما يستدل بها إذ تقدم إلى المُخَاطبْ كبداهات يُسلّم بها ويحاجِجْ هو الآخر لما حُوجِجَ بها.

الاتفاق والاختلاف حول النتيجة:

ينجم من الاختلافات السابقة عموماً ومن الاختلاف الأخير خصوصاً فتح مجال النقاش وإمكانية رد نتيجة الحجاج وخَلْق اختلاف حولها فيما لا يمكن ذلك في العملية البرهانية إذ أن القواعد المنطقية تتفق حولها جميع العقول.أما المواضع؛ وإن كان الخطيب يختارها بعناية إلاّ أن ظنيتها تجعلها عرضة للرّفض بل قد يقدر الخصم ردّها بمواضع أخرى. وهناك عدّة أساليب لرّد هذه المواضع وفي المثال قد تقابل كفاءة الأستاذ أنها كانت أيام صحتّه وشبابه أما الآن وهو يعاني وطأه المرض لم يصبح قادراً على العمل كما كان وأن رغم شهرته فقد فشل في في تحقيق النتائج أمام الأستاذ المبتدأ حديثا فيقابل بموضع آخر " يوجد في النهر مالا يوجد في البحر " وهو في ذات الوقت رد الموضع بما هو نقيض، تبيان نجاحه في مواقف وفشل في مواقف أخرى. مما يضيق مصداقية المواضع وتوسيع الاحتمالية فيه.

التّصريح والإيحاء:

إذا كان هدف البرهان هو اليقين مما يعني أن العملية الاستدلالية واجبة الإلمام بمبادئ وأوليات المقدمات البرهانية والحرص على تقديم المقدمات كلّها وإبراز كيفية الترابط المنطقي بينها وكيفية استنباطها من بعضها البعض وإثبات صدقها إذا كانت مبرهنة؛ ما يؤكد سلامة النسق المنطقي ومنه صدق النتيجة. في حيم لا يهدف الحجاج إلى إثبات إنما الإقناع. فيوحي المحاجِجْ بأفكارها بعبارات غير مباشرة غير أنه يدفع المخُاطَبْ إلى بناء العبارات المخفية أو الموحى لها بنفسه. بل قد تجعل من المخاطَبْ نفسه وسيلة لإقناع غيره من المخاطبين فالعبارات المخفية في حجاج الخطيب ستستعمل كعبارات مباشرة (حجج مباشرة) يتنافس به المخاطَبْ (أ) مع المخاطَبْ آخر (ب)، هذا من جهة أخرى، كما أن الإيحاء والإخفاء للحجة المباشرة قد يستخدمه المحاجِجْ كجس نبض يستطيع من خلاله تفرّس وجوْه

المتلقين لمعرفة ما سيؤول إليه الحوار مما يمكّنه من توجيه الفعل الحجاجي والتراجع عن حجة لصالح حجة أخرى وإعادة النظر في السلم الحجاجي أو تراتبية الحجج.

إن الإخفاء والإيحاء الحجاجي يتماشى مع إمكانية تقديم الحجج بشكل مباشر، غير أن اتجاه الفعل الحجاجي والسياق والمقام اللّذين يرّد فيهما ومجموع المعتقدات والإحالات الخارجية والباطنية للحجة مما يجعل الإيحاء إستراتيجية مرنة في تحقيق المطلوب " تاركين للمخَاطَب اشتقاق هذه النتيجة بنفسه مستعينا بما تهيأ له من معطيات حالية ومقامية ". إن المحَاجَجْ إذ ما استطاع بناء الحجج الموحى بها بنفسه تكون قادرة على إقناعه أكثر طالما كان المحاجج محترماً للمواضع.

إن كان من بين المعاصرين ممن لا يرون الاختلاف بين الحجاج والبرهان. إلاّ أن العناصر السابقة تجعلنا نقول إن اختلاف مجالي البحث اللّغة الطبيعية في الأول والعمليات الاستدلالية في الثاني يجعل الفرق بينهما كالفرق بين العلوم الدقيقة والعلوم الإنسانية.

قائمة المراجع:

- القرءان الكريم
- ابن منظور (1991)، لسان العرب، المجلد الثاني، دار صادر، بيروت، ط3.
- حافظ اسماعيل وآخرون (2012)، الحجاج، مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، ج 1، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1.
- حافظ اسماعيل وآخرون (2012)، الحجاج، مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، ج 2، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1.
- حافظ اسماعيل وآخرون (2012). الحجاج، مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، ج 3، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1.
- محمد العمري (2012). الحجاج مبحث بلاغي فما البلاغة. عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1.
- محمد طروس (2005). النظرية الحجاجية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1.
- الناصر عمارة (2009). الفلسفة والبلاغة، ، دار العربية للعلوم ' منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1.

- Lalande André,(2010) , vocabulair technique et critique de la philosophie , PUF, paris,s.éd.
- Perleman chaim, tyteca olbrechthe , (2000) , la nouvele rhétorique, traitè de l'argumentation, , puf, paris,5 em éd.